أخذت بلبه وزادت من قلقه وتخوفه . فقد وجد نفسه يحدق في لوحات فنية وتحف لا يوجد مثيل لها الا في أشهر متاحف العالم . وكان هيرتزل هو الذي طلب المقابلة ، فقد كتب الى البارون يطلب منه موعدا ليحدثه « حديثا سياسيا يهوديا » . فلما رد عليه البارون طالبا منه أن يحرر ما يريد عرضه عليه ويرسله اليه ، ثارت ثائرة هيرتزل الحساس ، وأجابه برسالة قال فيها انه واثق بأن البارون لن يقرأ المادة ان هو بعث بها اليه في شكل رسالة ولذا يريد أن يحدثه بالامر شفهيا ، ثم اضاف قائلا ان البارون قد اشتهر حتى الآن بأعماله الخيرية ، الا انه هو (أي هيرتزل) سيريه كيف بامكانه أن يصبح أكثر من مجرد محسن . فوافق البارون على مقابلته وعين موعدا يصادف عيدا يهوديا . وعند ذلك انكب هيرتزل على تسجيل مقترحاته التي سيعرضها على البارون ، وقسمها الى ثلاثة أبواب تحت العناوين التالية : المقدمة — رفع مستوى الجنس اليهودي — الهجرة . وعندما حل اليوم الموعود حمل أوراقه واستقل عربة اجرة الى قصر البارون ، وهو يرتعش من القلق ، وها هو الآن ينتظر في قاعة البليارد حضور البارون . وجاء البارون اخيرا وحيا هيرتزل بمودة وقاده الى مكتبه . وهنا بادره هيرتزل قائلا باستعجال لاهث : « هل يمكنك أن تعطيني ساعة ؟ اذا لا ، فأفضل الا أبدأ » . فابتسم هيرش بهدوء وقال : « تفضل » . فبدأ هيرتزل يعرض مشروعه ، ولكن بعد خمس دقائق رن جرس التليفون . فتأكد هيرتزل بأن هذه هي حيلة من البارون لانهاء المقابلة ، بحجة ارتباطه بعمل مستعجل طارىء . ولكن هيرش رفع السماعة وقال : لا أريد أن يزعجني أحد .

هذه المفاجأة السارة حفزت هيرتزل بمصل الشجاعة، فاندفع يقول بحماس : « خلال الفي عام من تشتتنا كنا بدون قيادة سياسية موحدة . وهذه كانت مصيبتنا الاساسية التي أضرت بنا أكثر مما أضر بنا الاضطهاد ، وجعلت التعفن ينال منا من الداخل . ولو كانت لدينا قيادة سياسية موحدة ، لتمكنا من التقدم نحو حل للمشكلة اليهودية » . ثم وصل الى موضوع الهجرة ، فقال : « سيمر وقت طويل قبل ان نبلغ أرض الميعاد . موسى احتاج الى أربعين سنة . ونحن سنحتاج الى ربما عشرين او ثلاثين سنة » .

ثم انتقد البارون عندما قال : « ان مبدأ الاحسان هو خاطىء تماما برأيي ، فانك تربي الناس على الاستجداء ، والاحسان يفسد طباع قومنا » .

ولدهشة هيرتزل ، هز هيرش رأسه موافقا وهو يقاطعه بهدوء : « انت على حق في ذلك » .

وتشجع هيرتزل أكثر وأكثر ، وأخذ ينتقد تجربة البارون في توطين اليهود بالارجنتين قائلا ان اليهود ما زالوا غير مستعدين لان يصبحوا مستعمرين ، « فأولا يجب تقويتهم ، كما لو كان للحرب ، ويجب تعليمهم بهجة العمل وممارسة الفضيلة » .

وهنا فاجأ البارون زائره عندما تفوه بالعبارة التي سبق أن استشهدنا بها في صفحة سابقة : « لا أريد أن أرفع المستوى العام لليهود ، فكل مشاكلنا تنبع من طموحنا الى المقامات العليا . فلدينا مفكرون أكثر مما يجب ، وهدفي هو أن أثبط ميل اليهود للاندفاع الى الامام . على اليهود الا يحرزوا تقدما كبيرا ، فكل الكراهية التي تنهال علينا متأتية من ذلك » .

ثم انتقد ضيفه بسبب أفكاره التي اتخذت شكل الرؤيا . فهب هيرتزل من مكانه صائحا : « انك لا تعرف ما معنى أن يكون المرء صاحب رؤيا، اذ فقط من الاعالي بامكان المرء أن يفهم غرائز الانسان الحيوية » .